من أدب الحزن

وفي ... وناكر

بقلم يوسف جوهر عطية

... وإذ أرسلت روحي في الماضي ذكرتك يارفيق ، وكانت قد أذهلتني عنك الحياة وقسوتها ، والأيام واضطهادها ، وعاد بي الفكر إلى تلك الأشبار من صحراء « الأقصر » حيث استقرت عظامك من خمس سنين ...

ما أكفرني بحق الصداقة يا صاحبي ! ما أغلظ هذا القلب اللحمي وما أقساه ! كيف نسيت حبّاً وثّقناه ، وعهداً قطعناه ! كنا نسير في الحياة كلٌّ يده في يد صاحبه ، وكل صورته في قلب رفيقه مرسومة . فلما فارقت الحياة أنكرت يدي الودّ القديم ، وران على قلبي صدأ النسيان ، وابتلع ظلام نفسي ذكراك .. بعد أن كان مكانك عرش القلب ، وبعد أن كانت ملكك كل النفس ، وبعد أن كنت ملجأ روحي القلقة ، وملاذ فكري المكدود ..

سامحني يارفيق فانني إنسان ، والانسان قد جبل على الغدر وفطر على النكران .. لتكن إنسانيتي عذري لديك . ولا تقس الوفاء بمقياس أهل السماء ، فانني بعد سجين في الجسد ، مأسور الروح ، عبد لنواميس الحياة . كن كما كنت كريماً ، متجاوزاً ، رفيقاً ..

أنت أنت الوفي ، وأنا أنا الناكر ..

وهيا يارفيق نعود فنصل الحديث ، ونمحو الجفاء ، فانني لحديثك مشتاق ، ولسمرك ظمآن ..

كنا لانصبر على الفراق ساعات ياصاحبي . لكن ها هي ذي عجلة الزمن تدور دورتها الطاحنة ، وتباعد خمس سنين بيني وبينك ، ولا أعود أرى وجهك بعد أن استوطنت أنت السماء وظللت أنا مغترباً في الدنيا . لقد استرحت في قبرك ، وخلفتني أعيش وحدي في هذا القبر الكبير !

لماذا عجلت ذهابك يارفيق ! . كنا قد تعاهدنا أن نقتسم معا شقوة الدنيا ، وأن نستقبل متكاتفين قسوة الحياة ، وأن يتقي كل بأخيه غدر القدر ! . لماذا مللت وتركت صاحبك يهيم وحده ! ! أأعياك حمل رداء الهموم وأنت في سن الفتوة وعمر النزيهة ، فآثرت الفرار من هذه الدار ؟ ! ..

لكن لا ياصاحبي .. سامحني . إني لعارف أنك لست من الذين يجبنون ويفرون ، وأن الله هو الذي اختارك واصطفاك .. هو الحزن القديم النائم تحت رماد الأيام تهب عليه ذكراك فتستيقظ جمراته ، وتكوى قلبي من جديد ، فيضل تفكيري ويطيش منطقي ، وأتهمك بما أنت منه بريء ! .

كيف حالك يا صاحبي ؟ ! ..

أكبرت أم أنت فتى كما كنت ! ؟ . هل بقيت لك بسمتك وبهاء طلعتك ، أم شاخت بسمتك وشحب محياك ؟ ! أم أن صور الأرض غير صور السماء ، وأنك هناك دائم الفتوة ، متجدد الشباب ، مسترسل السرور في كنف الله ؟ ! .

كيف حالك ؟ !

أين أنت الآن ؟ أين تقيم روحك ؟ هل أنت معذب أم منعم ؟ قلق أم مطمئن ؟ هل روحك في سلام ؟ .

رجائي قوي أنك في سلام .. فقد كنت باراً . وقضيت أيامك كالزهرة النقية تلثمها في النهار أشعة الشمس ، وتباركها في الليل أنوار النجوم .. كنت جم الفضائل . عشت وديعاً كطير الأفنان . كنت مصباح البيت في الهدى ، وتبراس الخلق الكريم

إني مطمئن عليك يارفيق ، وعارف بحظوتك عند الله ، وبمقامك في جوار الملائكة .. يهنيك نصيبك . يهنيك انك تخلصت من الدنيا قبل أن تدرك نفسك المطامع ، وتلوثها الشهوات ، وتشوهها أمراض الأغراض ، وتدفعها قوى الشر في مزالق الخطيئة . لقد نجوت ، وخلفتني وحيداً في الحياة ، في سوق النفاق ، أكابد الخسائر وأتجر بقواي ، وأنفق من فضائلي ، وأقامر بأيامي ، وأصارع حظي الشقي ..

يا صاحبي .. لقد كلت قدمي . تعبت ، هرمت روحي وأنا في شرخ الشباب .. وها هي ذي آلامي ترهقني فأفرّ إلى الماضي ، وأذكرك .. وهأنذا ألجأ إلى حنانك كما كنت أفعل وأنت في الحياة .. هيا نجدد العهد ، ونسعى إلى اللقيا في عالم الوهم ؛ حتى تجمعنا الحقيقة في الخلود ، فنعود إلى العزف على قيثارة حبنا القديم ، ونسترد ألحاننا الضائعة ...

يوسف جوهر عطية